

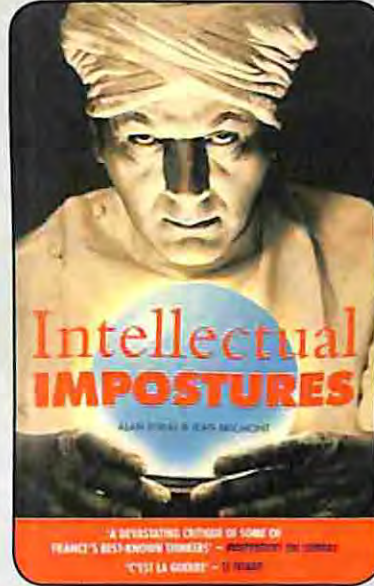


ربما يكون هذا الكتاب أحد أهم الكتب الثقافية التي صدرت خلال ربع القرن الأخير، وذلك لأسباب عدة؛ أولها: أنه يتناول موضوعا كانت له، وما زالت، شهرة وغلبة ثقافية طوال هذه الفترة، وهو موضوع ما بعد الحداثة بنظرة نقدية علمية موضوعية. وثانيها: أن العاصفة التي أثارها في الدوائر الثقافية حين صدوره بالفرنسية في أكتوبر ١٩٩٧م، ثم

#### « خدعة في مقال

بدأت فكرة الكتاب بخدعة، يقول المؤلفان (لعدة سنوات ونحن نراقب بدهشة وحزن صعود اتجاهات ثقافية في بعض الدوائر الأكاديمية الأمريكية، خاصة في أقسام الدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية التي تبنت فلسفة ما بعد الحداثة - وهو اتجاه رافض بشكل أو بآخر التراث العقلاني لعصر التنوير - عن طريق بحوث نظرية ليس لها صلة بالعمل التجريبي، وبمعرفة ثقافية نسبية تعتبر العلم لا شيء أكثر من رواية أو أسطورة أو بنية اجتماعية وسط أشياء أخرى كثيرة).

وردا على هذه الظاهرة كتب آلان سوكال مقالا في مجلة Social Text الأمريكية سنة ١٩٩٦، بعنوان (تجاوز الحدود: نحو تأويلات تحويلية للثقافة النوعية للكم) وهو عبارة عن محاكاة تهكمية لما يسمى بما بعد الحداثة، حشاه بشكل مكثف باقتباسات واستشهادات ومقتطفات موثقة مأخوذة من مؤلفات مجموعة من المفكرين البارزين الفرنسيين والأمريكيين، ولم يفتن المشرفون على المجلة إلى الخدعة، ونشروا المقال باعتباره يسير مع خط ما بعد الحداثة. ويقول المؤلفان: (حين أطلعنا عددا من الأصدقاء العلماء وغير العلماء على الملف الذي يحتوي على هذه المقتطفات، بدأنا



المظاهرون بالثقافة\*

سوء استخدام  
فلاسفة ما بعد  
الحداثة للعلم





تأليف

آلان سوكال و جان بريكمونت

عرض: أحمد عمر شاهين\*\*

بالإنكليزية، ومن ترجمة المؤلفين أواخر عام ١٩٩٨ ما زالت قائمة لم تهدأ بعد، فقد كتبت حوله مئات المقالات في الصحف والمجلات، وآلاف التعليقات على شبكة الإنترنت مؤيدة أو معارضة، مهاجمة أو مدافعة عن المؤلفين، مما يظهر أهمية الموضوع الذي تناولا.

الخصائص الهندسية للأشكال) علاقة بالنفس الإنسانية؟ لكن مع الأسف الأمر ليس كذلك عند فلاسفة ما بعد الحداثة).

يتناول الكتاب بالنقاش والتحليل ما جاء في مؤلفات فلاسفة ما بعد الحداثة من سوء استخدام للمفاهيم العلمية، وعدم الفهم الذي يحيط بحوثهم، ولغتهم الغامضة عمداً، وفكرهم المشوش، مع تأكيد أن الاقتباسات التي وردت في الكتاب هي قمة جبل الجليد فقط.

وخصص المؤلفان فصلاً لكل فيلسوف من جاك لاكان Lacan إلى جوليا كريستيفا Kristeva، ومن إريغاري Irigary إلى برونو لاتور Latour، ومن جان بودريارد Baudrillard إلى جاليز ديلوز Deleuze، ومن جوتاري Guattari إلى فيرليو Virilio مع مقتطفات مطولة تصل إلى صفحات أحياناً حتى لا يقال: إنهما يستقطبان جملة من سياق أو فقرة من كتاب، وحللاً هذه المقتطفات وبيئاً بالدليل العلمي أنها خالية من المعنى أو مغلوطة.

بالإضافة إلى هذه الفصول المتخصصة، هناك ثلاثة فصول شارحة، وهوامش للمفاهيم العلمية المتعلقة بالموضوع، وأيضاً المراجع التي يمكن الرجوع إليها كنصوص شارحة، كل ذلك ليصل الكتاب إلى القارئ غير المتخصص.

نقتنع بأنه يستحق النشر لجمهور أكبر.. فكان هذا الكتاب الذي نشر فيه بمصطلحات غير فنية: لماذا كانت هذه المقتطفات عبثية ولا تعني شيئاً، كما أردنا أن نناقش الظروف الثقافية التي مكنت مثل هذه البحوث من تحقيق شهرة كبيرة، وتظل حتى الآن دون أن يكشفها أو يفضحها (أحد).

إن المؤلفين أرادوا ببساطة أن يوضحوا أن مثقفين مشهورين من فلاسفة ما بعد الحداثة يستخدمون في كتاباتهم، وبشكل متكرر، المفاهيم والمصطلحات العلمية بطريقة خاطئة: إما باستخدام أفكار علمية خارجة عن السياق تماماً ودون أي تبرير، أو أنهم يلقون باللغة الاصطلاحية العلمية أمام القراء - غير العلماء بالطبع - دون اعتبار للمقام أو حتى للمعنى الذي يريده، مما يجعل كتاباتهم بلا معنى أو تحمل مفاهيم خاطئة.

وينبه المؤلفان إلى أنهما ليسا ضد استخدام مصطلحات أحد العلوم في ميدان علم آخر، لكنهما ضد الاستقراء غير المنهجي لهذه المصطلحات. ويقولان: (هل يمكننا أن نرفض مثلاً أن تكون لنظرية جوديل Godel أو نظرية النسبية علاقة مباشرة لدراسة المجتمع؟ أو أن تستخدم (مسلمة الاختبار) لدراسة الشعور؟ أو يكون لعلم التوبولوجيا (فرع من الرياضيات يبحث



### «سوء استخدام العلم»:

كل ذلك دون شرح أو تفسير.. فماذا يفهم القارئ من أقوالهم إذن؟

■ عرض معارف سطحية بتغليفيها بمصطلحات فنية في السياق، وهي لا علاقة لها بالموضوع على الإطلاق. والهدف بلا شك هو التأثير على القارئ وتخويف غير المتخصص في العلوم. والأدهى أن بعض الأكاديميين والمعلقين في وسائل الإعلام قد وقعوا في هذا الفخ. لقد قال (رولان بارت): إنه قد تأثر بشدة بدقة (جوليا كريستيفا) وأعجبت (اللوموند) باستقراء (بول فيريليو) المعلومات!

■ استخدام عبارات وجمل هي في حقيقتها بلا معنى. بعض هؤلاء المؤلفين يجد نشوة حقيقية باستعراض كلمات مرصوفة وراء بعضها البعض تختلف اختلافاً كبيراً في معناها ولا رابطة بينها.

بالإضافة إلى توضيح سوء الاستخدام هذا، فقد حلل المؤلفان أيضاً التشوش الفلسفي والعلمي والذي يقوم عليه فكر ما بعد الحداثة، وقدموا نقداً علمياً لمشكلة النسبية المعرفية عند هؤلاء الفلاسفة، وبيّنوا أن سلسلة من أفكارهم المشتقة من تاريخ وفلسفة العلم لا تملك التضمنين الجذري الذي يعزى إليها غالباً.

والغريب، كما يقول المؤلفان، أن هؤلاء الفلاسفة يتحدثون بثقة تفوق بكثير كفاءتهم العلمية. فيتباهى (لاكان) بأنه يستخدم أحدث وسائل التطور في التوبولوجيا! ويتفاخر (لاتور) بأن (أينشتاين) من الممكن أن يتعلم منه! إنهم يتخيلون أن بإمكانهم استغلال مكانة العلوم الطبيعية العالية، لإعطاء منهجهم قناعاً من الصرامة العلمية، وهم (مقتنعون أن لا أحد سيلاحظ ما يفعلونه، ويفضح ممارساتهم).

ويوضح المؤلفان اللذان جعلوا العنوان الفرعي لكتابهما (سوء استخدام فلاسفة ما بعد الحداثة للعلم)، أنهما يعنيان بسوء الاستخدام أحد المعاني التالية:

■ الاعتماد بشكل مطول على النظريات العلمية التي لا يعرف الكاتب عنها شيئاً أو في أحسن الأحوال يفهمها بصورة ضبابية.. مع استخدام المصطلحات العلمية دون اهتمام بما تعنيه هذه المصطلحات بالفعل.

## ■ يحاول هذا الكتاب الخطير أن يكشف زيف فلاسفة ما بعد الحداثة ويتزعم عنهم أقنعة الثقافة.

■ استخدام مفاهيم من العلوم الطبيعية، وتطبيقها على العلوم الإنسانية والاجتماعية دون إعطاء أي مبرر تجريبي أو مفهوم لهذا الاستخدام.. فمثلاً إذا أراد أحد علماء البيولوجيا أن يستخدم في بحثه أفكاراً أولية من التوبولوجيا الرياضية أو التباين الهندسي، فلا بد من تقديم بعض التوضيح والشرح، لكن فلاسفة ما بعد الحداثة يفعلون العكس: فلاكان Lacan مثلاً يرى أن بنية موضوع العصاب هي نفسها بنية النتوء المستدير! وكريستيفا ترى أن اللغة الشعرية يمكن أن ينظر إليها بمصطلحات نظرية الكم، وبودريلاز يرى أن الحرب الحديثة تدور في فضاء غير إقليدي Non-Euclidean،

■ هؤلاء الفلاسفة يتحدثون بثقة تفوق بكثير كفاءتهم العلمية. فيتباهى (لاكان) بأنه يستخدم أحدث وسائل التطور في التوبولوجيا! ويتفاخر (لاتور) بأن (أينشتاين) من الممكن أن يتعلم منه!



لاكان



لاتور

قصيدة حتى يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره. أما لماذا هؤلاء الكتاب دون غيرهم؟! فيوضح المؤلفان أنهما لا يكتبان موسوعة من عدة مجلدات لفضح الجميع، فمجالهما محدود هو سوء استخدام المصطلحات التي تنتمي إلى مجال تخصصهما - الرياضيات والطبيعة - سوء الاستخدام الذي أصبح (موضة) مؤثرة في الحلقات الثقافية، سوء الاستخدام الذي لم يسبق أن تعرض له أحد بالفضح والتحليل.. للفت النظر إلى ذلك وليس دراسة الظاهرة بالتفصيل.

كما يوضح المؤلفان أنهما لا يهاجمان الفلسفة أو العلوم الإنسانية والاجتماعية في عمومها، بل على العكس، فهما يشعران بالأهمية القصوى لهذه العلوم، ويريدان تحذير أولئك الذين يعملون في ميادينها، خاصة الطلبة، من بعض ظواهر الدجل والخداع الثقافي، ويريدان، على وجه الخصوص، هدم سمعة أن بعض النصوص صعبة لأنها عميقة، ففي حالات كثيرة هذه النصوص تبدو غير مفهومة لأنها في الحقيقة، والدقة، لا تعني شيئاً. ويخصص المؤلفان فصلاً كاملاً ليردا فيه مقدماً على الاعتراضات التي قد تراود بعض القراء حول الهدف من الكتاب. فقد يتساءل البعض: هل إساءة استخدام المفاهيم عند هؤلاء المفكرين ناتج عن احتيال مقصود أو خداع نفسي غير مقصود أو منهما معاً؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ليست مهمة في رأيهما، فهدفهما هو إثارة موقف نقدي ليس تجاه أفراد بعينهم، بل تجاه تيار فكري في أوروبا وأمريكا ساهم وشجع هذا النوع من البحوث.

وقد يقول البعض: إن المؤلفين لم يفهما النصوص التي تناولاها، لكن إذا تعلق الأمر بمفاهيم رياضية وطبيعية محددة المعنى فلا مجال لعدم الفهم خاصة عند علماء تخصصهم هو هذه الموضوعات. وينبه المؤلفان إلى أن نقدتهما لا يتناول الأخطاء التي لا حصر لها، بل يركز على عدم العلاقة الواضحة للمصطلح العلمي مع الموضوع المفروض أن يبحثه. وربما يقول قائل: إن هذه المصطلحات تستخدم كتشبيه أو كرمز. ويرد المؤلفان بأننا لسنا هنا في مجال كتابة



### «طلقة في حرب الثقافة»

ويؤكد المؤلفان أن أي تفسير للكتاب بأنه غطاء لمهاجمة (س) من الناس أو الأفكار سواء كانت فكريا فرنسيا أو ثقافة يسارية أمريكية أو مهما كان.. يفترض مسبقا أن (س) قد انتشر بطريقة زائفة وهناك من يكشفها.

ويقول المؤلفان: (لا نريد أن ينظر لكتابنا كطلقة أخرى في الحروب الثقافية، أو على الأقل وجهة

في وسائل الإعلام ودور النشر وطبقة المثقفين - ولهذا السبب كانت ردود الفعل الغاضبة ضدنا - فإن أمثالهم من الأنجلو-أمريكيين ما زالوا أقلية داخل الدوائر الثقافية مما يظهرهم أكثر راديكالية وأقل تخريبا مما هم عليه. لكن كتابنا ليس ضد الراديكالية السياسية، إنه ضد التشويش الثقافي، وليس هدفنا انتقاد اليسار. لكن المساعدة بالدفاع عنه من الجزء الحداثي منه).

### «الكتاب باختصار يتناول فرعين من النقد»

- تحليل مجموعة من إساءات الاستخدام الهائلة للمصطلحات العلمية عند فلاسفة ما بعد الحداثة التي اكتشفها (آلان سوكال) وأطلق على أصحابها عنوان الكتاب (المتظاهرون بالثقافة).

- نقد (النسبية المعرفية) وسوء الفهم لمعنى علم ما بعد الحداثة. والعلاقة بين النقيدين علاقة حتمية سوسيولوجية. فالمتظاهرون بالثقافة من الفرنسيين يتوافقون مع الكثير مما تقول به الدوائر الأكاديمية المتكلمة بالإنجليزية - حيث النسبية المعرفية هي عملة مملكة ما بعد الحداثة.

ولأن المقتطفات التي حللها المؤلفان من النصوص ما بعد الحداثية تتجاوز الصفحة أو الصفحتين في المرة الواحدة، فمن الصعب الاستشهاد الكامل بها، لكنني سأختار هنا جملتين للتوضيح فقط، إحداهما للاكان والأخرى لكريستيفا. يقول لاكان: (في هذا الفضاء من اللذة، هناك شيء ما يجد ويفلق ويشكل مقاما ما، وعند التحدث عنه فإننا ننشئ نوعا من التوبولوجيا).

ويقول سوكال: (في هذه الجملة استخدم (لاكان) أربعة مصطلحات فنية من الرياضيات التحليلية (فضاء، يجد، يفلق، توبولوجيا) لكن دون أن يلتفت لأي اعتبار لمعناها، ولذا فالجملة غير مفهومة من وجهة النظر الرياضية والأكثر أهمية أن (لاكان) لا يشرح للقارئ علاقة هذه المفاهيم الرياضية بالتحليل النفسي، وحتى لو كان مفهوم (اللذة) واضحا وله معنى محدد،

■ ينبه المؤلفان إلى أن نقدهما لا يتناول الأخطاء التي لا حصر لها بل يركز على عدم العلاقة الواضحة للمصطلح العلمي مع الموضوع المفروض أن يبحث.

نظر يمينية، كأن يقال: اليسار الأكاديمي ضد اليمين الأكاديمي، أو اليسار الثقافي ضد اليسار الاقتصادي، إن الأفكار التي عرضناها هنا لا علاقة لها مفهوماً ومنطقياً بالسياسة، إن الكتاب يمس مجالاً أوسع من موضوعه بسبب الرابطة الاجتماعية بين تيارات مثقفي ما بعد الحداثة التي ننتقدها وبعض قطاعات اليسار الأمريكي الأكاديمي، ولولا هذا الارتباط لما ذكرنا السياسة على الإطلاق.

الكتاب يواجه سياقاً أساسياً مختلفاً تماماً في فرنسا عنه في العالم المتحدث بالإنجليزية، فبينما للمؤلفين الفرنسيين الذين ننتقدهم تأثير عميق وكبير على التعليم العالي الفرنسي، ولهم مريدون كثيرون